آفاق الدعاء عند الإمام الكاظم (عليه السلام)

أ.م.د. زينة كاظم محسن

العراق/

كلية الإمام الكاظم (عليه السلام) للعلوم الإسلامية الجامعة/ أقسام النجف الأشرف/ قسم/ علوم القرآن والحديث.

إنّ الدعاء والطلب الصادر من العبد لربّه جلّ وعلا من الأمور التي لا يُستغنى عنها، فلو ترك العبد الدعاء والمناجاة لكان خارجا عن حدود الإيمان، ولصار بذلك مستكبرا، فالضد من الدعاء استكبار وهذا ما يشير له القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠) [غافر:60], والدعاء بالمأثور من المسائل التي أكّد عليها ديننا الحنيف, وخير الدعاء ما ورد عن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرين، وللدعاء مفاهيم وتعاليم وتحوي أكثر الأدعية على مزايا وشذرات لغوية وتربوية وروحية ومعنوية وتعليمية وأدب الطلب والتأدب في الدعاء.

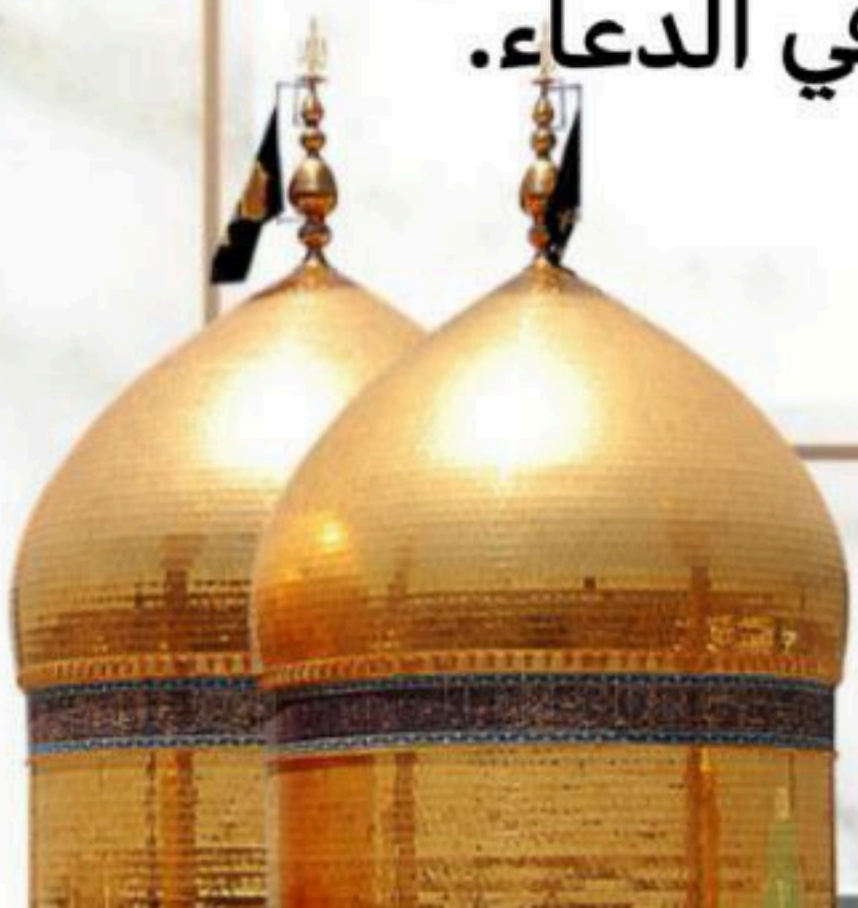

أدعية أهل البيت (عليهم السلام)
خزائن علم

فثمّة مسألة يلحظها المتتبع المتدبر في أدعية أهل البيت (عليهم السلام) أنّها خزائن علم لا تُمنح مفاتيحها بسهولة إلا بعد التأمل في النصّ الدعائي بالعودة لكلام الثقلين القرآن الكريم وكلام العترة الهادية، لذا نجد لعلمائنا في تراثنا الإسلامي القديم والمعاصر شروح لأدعية أهل البيت (عليهم السلام) لدروس مستخلصة ودرر نفيسة في هذه اللوحات الدعائية على لسان العبد في باب الطلب والمسألة والحاجة لله عزّ وجلّ. وعليه سيكون عنوان المحاضرة لهذا اليوم هو: آفاق الدعاء عند الإمام الكاظم (عليه السلام).

كلام الإمام الكاظم (عليه السلام)

من المعلوم أنّ كلام الإمام الكاظم (عليه السلام) تنوع في خطب، وأقوال، وحكم، وأمثال، ووصايا، ومواعظ، وأجوبة مسائل مختلفة في الشريعة والعقيدة والأخلاق.

• وعليه كان التركيز في هذا الطرح على الدعاء، فقد كان مجموع الأدعية المنقولة عن الإمام الكاظم (عليه السلام)، (160) دعاءً، تنوعت في أحد عشر بابا منها:

1. أدعيته في التسبيح والتحميد والمناجاة لله عزّ وجلّ، والصلاة على محمد وآله، وسنقف على (دعاء الاعتقاد) وهو في مناجاة الله تعالى والتوسل بمحمد وآله.
2. أدعيته في جوامع الأمور وخصائصها.. أمثال الاستغفار والاستخارة...
3. أدعيته في طلب العافية وقضاء الحوائج..
4. أدعيته لطلب دفع الشدائد وكشف المهمات.

كلام الإمام الكاظم (عليه السلام)

5. أدعيته لطلب الرزق وأداء الدين.

6. أدعيته لطلب كفاية البلاء ودفع الأعداء، وفيها دعاء الجوشن الصغير.

7. أدعيته في الأوقات، في الصباح والمساء وأيام الأسبوع، وفي شهر رمضان...

8. وفي مواقيت الأمور، كالنوم والاستيقاظ، والتهجد والتعقيبات، والخروج والسفر، وعند الأكل وغيرها..

9. أدعيته المروية عن النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي (عليه السلام).

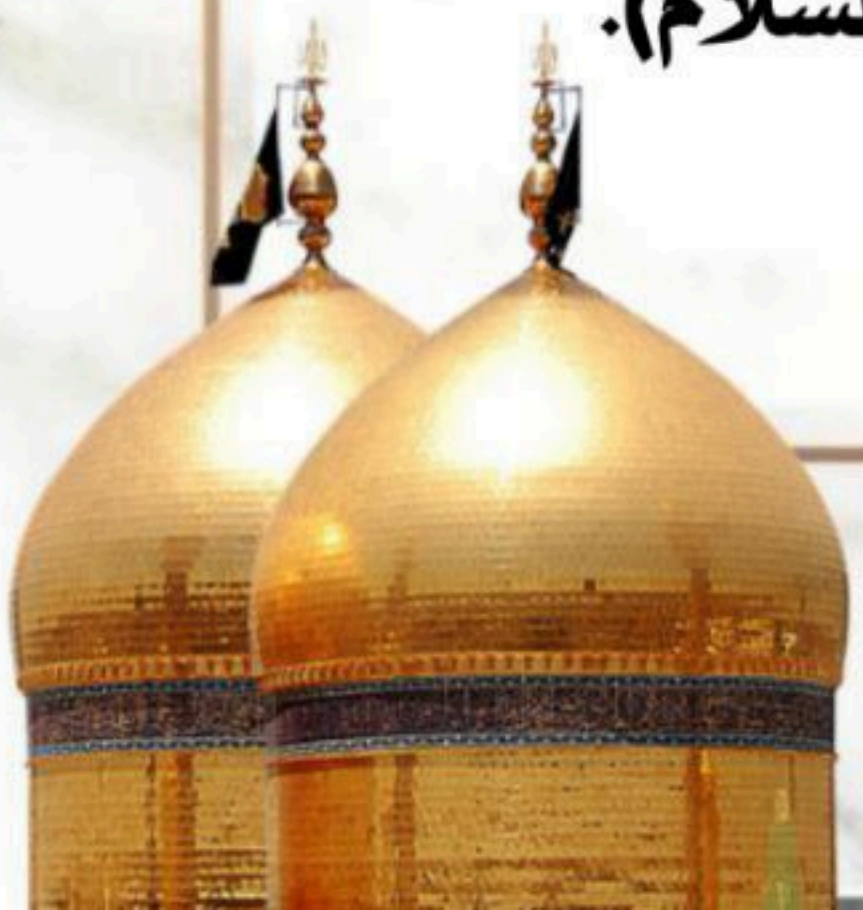

أسئلة في دعاء الجوشن الصغير

1. ما ظروف دعاء الجوشن الصغير ولمّن دعا به الإمام الكاظم (عليه السلام)
2. ما الكتب التي ذكرت الدعاء توثيقا له.
3. ما المضامين التي ورد ذكرها في دعاء الجوشن الصغير؟
4. ما المعاني التي تركّزت في الدعاء؟ وما دلالاتها؟
5. ما أسباب تكرار مقاطع في فقرات الدعاء؟

تسميّة الدعاء، ووصفه في كتب التراث:

وأمّا وجه تسميته الجوشن فهو "الصدر والدرع" فكونه كالدرع الذي يلبس في الحرب ليحمي الصدر، وهذا مجاز معنوي في تسمية الدعاء لآثاره في حفظ من قرأه وواظب عليه... ووصفه بالصغير إنّما ورد في باب مقابلته مع الدعاء الكبير وهو دعاء الجوشن الكبير... وقد عدّ الدكتور محمد بيومي مهران دعاء الجوشن الصغير من أهمّ آثار الإمام الكاظم (عليه السلام) معتمدا على ما أورده فؤاد سزكين في ذكره تاريخ التراث العربي في سرده لحياة الإمام الكاظم (عليه السلام) وعلومه ومعارفه ومنها ذكر هذا الدعاء في أولى آثاره (صلوات الله عليه).

وقد ورد التأكيد في قراءة هذا الدعاء في دفع ظلم الأعداء ورفع البلاء والخوف من المؤذين حتى في باب العمل ومن أهل بيت الداعي فلا يعني الطلب بهذا الدعاء على نحر فلان " اللهم ادرء عني في نحر فلان بن فلان" بطلب الموت له كما في آخر الدعاء في أي وقت من النهار أو الليل وفيه آثار مباركة،ومن مستحبات هذا الدعاء وآثاره المباركة هو كتابته على الكفن كما ذكر الفقهاء.

ظروف الدعاء:

تبدأ حادثة إطلاق إمامنا الكاظم (عليه السلام) لدعاء الجوشن الصغير، في الحوادث التاريخية ومعاداة موسى الهادي لقتله؛ بسبب الأوضاع السياسية هناك في ذكر واقعة فخ واستشهاد الحسين بن علي صاحب فخ، فأرسل علي بن يقطين في طلب الإمام الكاظم (عليه السلام) واجتمع مع خواصه وشيعته، لينظر في أمرهم وما يفعلون، فكان طلب شيعة الإمام (عليه السلام) أن" قالوا: نشير عليك -أصلحك الله- وعلينا معك أن تباعد شخصك عن هذا الجبّار وتغيّب شخصك دونه.

فتبسم الإمام (ع) ثم تمثّل ببيت كعب بن مالك أخا بني سلمة وهو::

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها فليغلبنَّ مغالب الغلاب

فتوجه الإمام نحو القبلة ليدعو بدعاء الجوشن المعروف الوارد عنه"( ) .

نصّ دعاء الجوشن الصغير:ورد الدعاء في كتب الأدعية ومنها:

1. مهج الدعوات لابن طاووس(ت664ه) ( ).
2. البلد الأمين للكفعمي( )
3. بحار الأنوار للعلامة المجلسي( ).
4. الصحيفة الكاظمية الجامعة لمحمد باقر الموحد ( ).
5. كنز الدعاء محمد الريشهري( ).
6. موسوعة الأدعية جواد القيومي( ).
7. مفاتيح الجنان لعباس القمي( ).

شكل الدعاء وفقراته

شكل الدعاء وفقراته: إنّ عدد مقاطع الدعاء كانت (19) مقطعا، يُختتم بمقطع أخير هو ختام الدعاء بالسجود، وجاءت هذه المقاطع متنوعة الطول والقصر، وكثرت فيها الجمل القصيرة، وتنتهي كل فقرة بعبارة مكررة في سبعة عشر موضع وهي:

"فَلَكَ الحَمْدُ يارَبِّ مِنْ مُقْتَدِرٍ لايُغْلَبُ، وَذِي أَنَاةٍ لا يَعْجَلُ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاجْعَلْنِي لِنَعْمائِكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلآلائِكَ مِنَ الذَّاكِرِينَ"

وهنا نلمح في التكرار لهذه العبارة التي سنقف عليها بمزيد تفصيل في موضوع التكرار وأنماطه، لكن نشير إلى مسألة وهي ترتيب هذه الجمل إذ تبدأ بالحمد والمدح لربّ الجلالة، ثم تنتقل إلى الصلاة على محمد وآل محمد، ثم الطلب وهنا الطلب بأن يحقق الله سبحانه للداعي بأن يكون من الشاكرين والذاكرين..

فيتبين لنا منزلة الشكر والذكر وأهميتهما كما ينص القرآن الكريم: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢}: [البقرة:152]، وفي الدعاء نجد أنّ الداعي إذا تحلى بالشكر سيكون قد استحضر الصبر معه، "قال صلى الله عليه وآله: الايمان نصفان نصف في الصبر ونصف في الشكر"( ).

شكل الدعاء وفقراته

ولذلك نقرأ في مضامين أدعية هل البيت (عليهم السلام) أنّهم يوجهوننا لطلب "صبر الشاكرين" ( ) فيبدو أن يختلف عن الصابرين أنفسهم وهذا فارق كبير كما يبينه علماء الأخلاق في بيان تعريف الصبر بـ"حبس النفس عن جزع كامن عن الشكوى. أي " حبس النفس " عن إظهار الجزع بالشكاية إلى الغير مع كمون الجزع في الباطن" ( ). ومن دلائل محبة العب لربّه أنّه لا يرى الصبر على البلاء إلا شكرا, ويمكن تشبيه هذا النمط التركيبي التكراري كأنه تاج وهو الحمد ومرصع بجوهرة الصلوات المحمدية وحجرين كريمين هما الشكر والذكر. ويحقق هذا التكرار في المقطع في الدعاء في الشكل والمضمون ففي الشكل نلحظ موسيقى الجذب المتلقي والخفة والجمال في جرس الألفاظ، وعلى مستوى المضمون في المعاني الشعورية والجمع بين المتلقي والمرسل، وتجاوب الربّ تعالى واقباله للداعي( )

وبعد المقاطع التي يسردها الإمام الكاظم (عليه السلام) في تصوير أحوال العباد من مريض وشريد وسجين وعليل وأسير وغريب ... لينتقل إلى حال الطلب من الربّ الكريم، ثم ختمها بحالة السجود؛ ليدفع اللّه سبحانه هذا العدو، ويذكر اسمه بعبارة "فلان بن فلان"، فما تقدّم من إشارات سيميائية وحركات جسدية وعبارات لسانية من تعليم مولانا الكاظم (عليه السلام) للتأدب في الدعاء والطلب، ولا سيما في رفع البلاء ودفع العدو وشديد الأمور وصعبها.

خريطة المقاطع في دعاء الجوشن الصغير

فالقارئ المتأمل في دعاء الجوشن الصغير يقف مذهولا لهذا البناء اللغوي والسبك اللفظي فضلا عن التدرج في توجيه المعاني للطلب وصولا للذورة في الطلب، والانتقال بين المقاطع بطريقة منتظمة ومدروسة ومقصودة..

ومن أحوال العباد التي يستعرضها، مع ملاحظة أنّ ما يحصل من هذه الأحوال في أي زمان ومكان وحاصل أن وردت عليه نفسه في زمن معين أو حتى الآن ليصور شدة ما يمرّ به الإنسان من بلاء لكن كما أسلفنا شاكر صابر:

1. حال العبد عند الموت: "إِلهي وَكَم مِن عَبْدٍ أَمسَى وَأَصبَحَ فِي كَرْبِ الْمَوْتِ وَحَشْرَجَةِ الصَّدْرِ".
2. حال العبد في المرض: "إِلهي وَكَم مِن عَبْدٍ أَمسَى وَأَصبَحَ سَقِيماً مُوجِعاً (مُدْنَفاً) فِي أَنَّةٍ وَعَوِيلٍ".
3. حال العبد في الخوف: "إِلهي وَكَم مِن عَبْدٍ أَمسَى وَأَصبَحَ خَائِفاً مَرْعُوباً مُشْفِقاً (مُسَهَّداً) وَجِلاً هَارِباً طَرِيداً".
4. حال العبد في السجن: "إِلهي وَسَيِّدِي وَكَم مِن عَبْدٍ أَمسَى وَأَصبَحَ مَغْلُولاً مُكَبَّلاً فِي الْحَدِيدِ بِأَيْدِي الْعُدَاةِ لا يَرْحَمُونَهُ، فَقِيداً مِن أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، مُنْقَطِعاً عَن إِخْوَانِهِ وَبَلَدِهِ".
5. حال العبد في ساحة الحرب: "إِلهي وَكَم مِن عَبْدٍ أَمسَى وَأَصبَحَ يُقَاسِي الْحَرْبَ وَمُبَاشَرَةَ الْقِتَالِ بِنَفْسِهِ، قَدْ غَشِيَتْهُ الأَعْدَاءُ مِن كُلِّ جَانِبٍ بِالسُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَآلَةِ الْحَرْبِ"

خريطة المقاطع في دعاء الجوشن الصغير

6. حال العبد في البحر: "إلهي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أمْسَىٰ وَأصْبَحَ فِي ظُلُمَاتِ الْبِحَارِ، وَعَوَاصِفِ الرِّيَاحِ وَالأهْوَالِ وَالأمْوَاجِ، يَتَوقَّعُ الْغَرَقَ وَالْهَلاكَ".

7. حال العبد في السفر: "إلهي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وأَصْبَحَ مُسَافِراً، شَاخِصاً عَنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، مُتَحَيِّراً فِي الْمَفَاوِزِ، تَائِهاً مَعَ الْوُحُوشِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ".

8. وهنا المقطع يصور لنا أكثر من حال ويؤكد على سرّ عبد وجيه عند الله عزّوجلّ، فلنتابع كيف يذكر الإمام الكاظم (عليه السلام) هؤلاء العباد، وعى النحو الآتي:

أ/ حال العبد الفقير: "إلهي وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ فَقِيراً عَائِلاً، عَارِياً مُمْلِقاً مُخْفِقاً، مَهْجُوراً (خَائِفاً) جَائِعاً ظَمْآنَ، يَنْتَظِرُ مَنْ يَعُودُ عَلَيْهِ بِفَضْلٍ،

ب/ حال العبد الوجيه: "أَوْ عَبْدٍ وَجِيهٍ عِنْدَكَ، هُوَ أَوْجَهُ مِنِّي عِنْدَكَ، وَأَشَدُّ عِبَادَةً لَكَ، مَغْلُولاً مَقْهُوراً، قَدْ حُمِّلَ ثِقْلاً مِنْ تَعَبِ الْعَنَاءِ، وَشِدَّةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَكُلْفَةِ الرِّقِّ، وَثِقْلِ الضَّرِيبَةِ".

ج/ حال العبد المبتلي: "أَوْ مُبْتَلًىٰ بِبَلاءٍ شَدِيدٍ لا قِبَلَ لَهُ بِهِ إِلا بِمَنِّكَ عَلَيْهِ".

9. حال العبد الطريد الشريد: "إلهي وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وأَصْبَحَ شَرِيداً طَرِيداً حَيرانَ جَائِعاً، خَائِفاً خَاسِراً فِي الصَّحَارِي وَالْبرارِي".

10. حال العبد العليل المريض: "إلهي وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ عَلِيلاً مَرِيضاً سَقِيماً، مُدْنِفاً عَلَىٰ فُرُشِ العِلَّةِ وَفِي لِبَاسِهَا".

خريطة المقاطع في دعاء الجوشن الصغير

11. حال العبد المنتظر لأجله: "مَوْلايَ وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ وَقَدْ دَنَا يَوْمُهُ مِنْ حَتْفِهِ، وَأَحْدَقَ بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ فِي أَعْوَانِهِ، يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَحِيَاضَهُ".

12. حال العبد في مضائق الحبوس: "مَوْلايَ وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ فِي مَضَائِقِ الْحُبُوسِ وَالسُّجُونِ، وَكُرَبِهَا وَذُلِّهَا وَحَدِيدِهَا، تَتَدَاوَلُهُ أَعْوَانُهَا وَزَبَانِيَتُهَا".

13. حال العبد السجين الذي استمر به القضاء: سَيِّدِي وَمَوْلايَ وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ قَدِ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، وَأَحْدَقَ بِهِ الْبَلاءُ، وَفَارَقَ أَوِدَّاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ وَأَخِلاَّءَهُ، وَأَمْسَىٰ أَسِيراً حَقِيراً ذَلِيلاً فِي أَيْدِي الْكُفَّارِ وَالأَعْدَاءِ، يَتَدَاوَلُونَهُ يَمِيناً وَشِمَالاً".

14. حال العبد المشتاق للدنيا الراغب فيها: "إِلهِي وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ قَدِ اشْتَاقَ إِلَى الدُّنْيَا لِرَغْبَةٍ فِيهَا، إِلَى أَنْ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ حِرْصاً مِنْهُ عَلَيْهَا".

15. حال العبد في الحرب المستمر عليه القضاء: "إِلهِي وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ قَدِ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، وَأَحْدَقَ بِهِ الْبَلاءُ وَالْكُفَّارُ وَالأَعْدَاءُ، وَأَخَذَتْهُ الرِّمَاحُ وَالسُّيُوفُ وَالسِّهَامُ".

- وبعد هذه الاستعراضات التي لا يخلو منها عبد أو يتجاوزها على أي حال فينتقل الإمام مقطعي الختام ومقطع السجود، والتي يحصل به

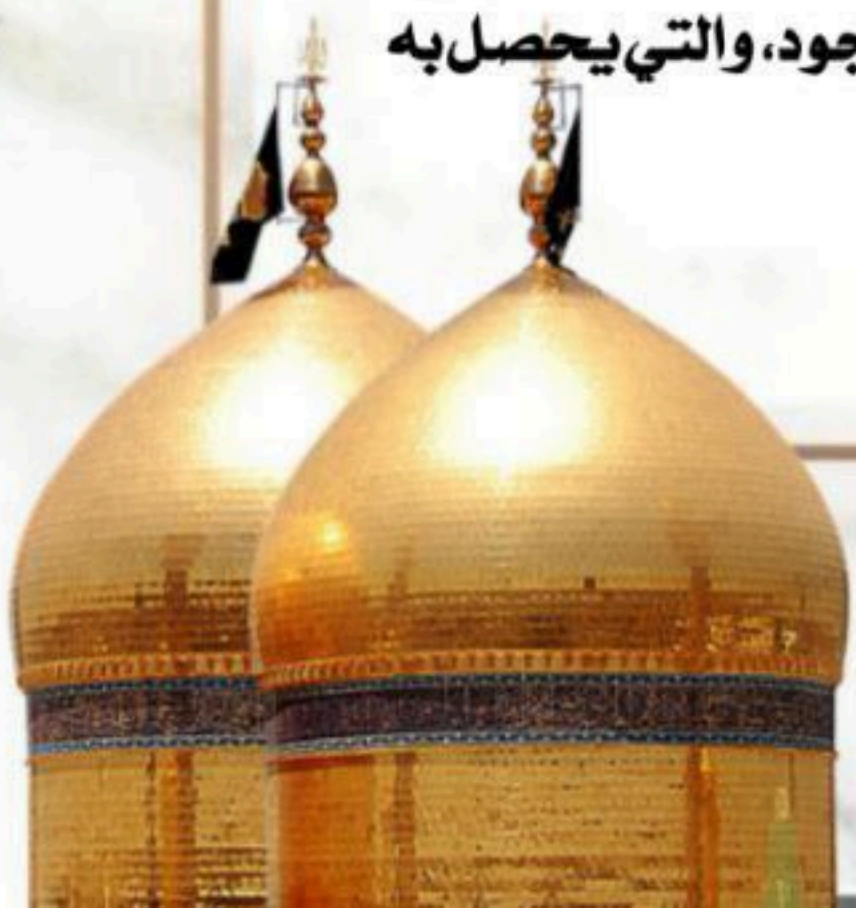

ومن متابعة المقطع الأول من الدعاء نلاحظ ما يأتي:

1. الحشد الدلالي المتنوع للأشكال التي يتعرض لها ابن آدم من العدو، وهنا يسرد لنا مولانا الكاظم (عليه السلام) أشكال أفعال العدو بجمل فعلية وتوازيات نحوية كثيرة جدا، ونلاحظ كثرة أشكال الأحوال التي يستعرضها الإمام الكاظم (عليه السلام) التي تعصف بالمؤمن وأول سؤال يأتي في هذه السياق:

- من العدو؟

- وهل يمكن معرفته والتكتيك له في ساحة الحرب؟

- وما أوجه عداوته؟

- للإجابة على هذه التساؤلات علينا أو نحدد العدو في سياقات كلام أئمتنا (عليهم السلام) وهو يمكن أن يكون أحد ما يأتي:( )

1. النفس: قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): "لاعَدُوَّ أَعْدَى عَلَى الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ"( ).

2. الشيطان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة:168]

1. الهوى: عن الإمام علي (عليه السلام): "الْهَوَى عَدُوُّ الْعَقْلِ"( ).

2. الجهل: قال الإمام علي (عليه السلام): "الجهل أنكى عدو"

ومن متابعة المقطع الأول من الدعاء نلاحظ ما يأتي:

3.الخل غير المتقي: فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): "يا ابن مسعود: فليكن جلساؤك الأبرار وإخوانك الأتقياء والزهاد، لان الله تعالى قال في كتابه: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. ()".

4.وكل متناقض للآخر عدو فالظالم عدو، وكل موضوع بالضد يكون عدو؛ ولذلك نجد في المقطع الثاني من الدعاء يشير الإمام الكاظم (عليه السلام) إلى الباغي "باغٍ" وهو الظالم فهو عدو للمظلوم، وكذلك في المقطع الثالث إشارة إلى من يفعل ما يفعل بسبب هذه الرذيلة التي اتصف بها فصار عدوا ألا وهو الحاسد "حاسد"، جاء في الدعاء:

مقطع2 ـــــــــــ "إِلهي وَكَم مِن بَاغٍ بَغَانِي بِمَكَائِدِهِ"...الخ

مقطع3 ـــــــــــ "إِلهي وَكَم مِن حَاسِدٍ شَرِقَ بِحَسْرَتِهِ (بِحَسَدِهِ)، وَعَدُوٍّ شَجِيَ بِغَيْظِهِ"....الخ.

المقترحات والتوصيات

1.دراسة كنوز أدعية أهل البيت (عليهم السلام) وحثّ الباحثين في مختلف الاختصاصات للتدبر في هذه النصوص الثرية ليست باللغة فحسب بل أكثر ,اكبر مما نتصور..

2. أدعو لمصطلح يمكن إدخاله ضمن التنظير والإجراء التاريخي وهو الأسباب التاريخية لأدعية أهل البيت (عليهم السلام) وإطلاقها..وهنا مسألة تعطينا مسلك تاريخي واضح المعالم في تاريخ الأئمة (عليهم السلام)..

3. متابعة كلام المعصومين (عليهم السلام) وتصنيفاتها النثرية على تنوعها، وحثّ الباحثين على التنقيب في دراستها..

4. الكثير الكثير من كلام محمد وآله الأطهار لم يرَ النور، ولم يُدرس دراسات علمية جادة ولا حتى محاولات بسيطة فيرجى الانتباه لهذه القضية..

5. شروح أدعية أهل البيت (عليهم السلام) ندر الكتابة عنها وقلت الدراسات فيها..فأدعو لمتابعة ذلك...

6. متابعة التراث المخطوط الذي يُعنى بكلام المعصومين (عليهم السلام) وإظهاره للنور تحقيقا ودراسة..

7. بالإمكان دراسة دعاء الجوشن الصغير في اختصاص علم النفس، وتحديدا بوصفه علاجا في حقل العلاج السلوكي المعرفي..